المعاني بين الشيوع والاختصاص

مشاعية المعاني هي الأساس الذي بنى عليه بوفون نظريته في صلة الأسلوب بالرجل؛ لأن المعاني -عنده- ملكية عامة لجميع الناس، أو هي مطروحة في الطريق على حد تعبير الجاحظ. أما الصياغة التي يصور فيها الأديب أو المفكر تلك المعاني فهي ملكية خاصة تعزى إلى صاحب الأسلوب.

أي أن الأديب لا فضل له في المعنى ، وإنما فضله وعمله مقصور على الصياغة التي يصور فيها معناه ؟

ومؤدى هذا: أن المعاني لا تبتكر ولا تخترع، وإنما تحكى في صياغات أو أساليب مختلفة، وأجود الأدباء هو مَنْ أحسن الإفصاح عنها في عبارات جميلة ، وكفى ؟!

هذا هو مؤدى نظرية بوفون وبعض النقاد العرب من القدماء كالجاحظ وأبي هلال ، ونسأل - الآن - سؤالاً :

هل هذا المذهب صحيح ؟ أم مخالف للواقع ؟

*** ليس صحيحاً**

والإجابة باختصار: إن هذا المذهب ليس صحيحاً بأي وجه من الوجوه .

والإجابة في شيء من التفصيل نوجزها في الآتي :

المعاني ضروب وألوان :

أجل : إن المعاني ضروب وألوان وأشكال :

منها ما هو ظاهر مكشوف ، وعامي مبتذل يشترك في تحصيله كل الناس عامتهم وخاصتهم ، كتشبيه الشجاع بالأسد ، والكريم بالبحر ،

وكذلك العالم الغزير العلم ، وتشبيه النابه بالشمس ، والحسناء بالقمر ، وحمرة الخدود بالورد ، والرمضاء بالنار ، ومخلف الوعود بالثعلب ، وهكذا . . وهكذا .

ومنها ما هو أرفع مما تقدم قليلاً ، وهي المعاني التي يدركها الخاصة دون العامة ؟ ويدخل في هذه المعاني الموحى بها ، كالتورية عن الشمس بالغزال ، وحمرة الدمع بالعقيق ، وكالنكنية بالدم عن الدية ، وبطول النجاد عن طول القامة ، وبعد مهوى القرط عن طول المرأة ، وكتشبيه ليونة القوام بالغصن ، وسحر النظرة بنظرة الغزال ، وحدة اللسان بالسيف ، والتجوز بالغيث عن النبات ، وبالنبات عن الغيث ، وهكذا . . إلخ .

ومن المعاني ما هو كالأصواف واللآلئ في أعماق البحور والمحيطات لا تُنال إلا بالغوص وراءها واستجلائها في معرض جميل من حسن العبارة عنها . وبهذا يَبُذَّ شاعر شاعراً ، ويقدم أديب ويؤخر آخر ، ويقال: هذا الشاعر أخذ معنى ذاك الشاعر ، ومن هنا عرفت في تاريخ النقد الأدبيّ ظاهرة السرقات الشعرية أو المحاكاة بين الشعراء.

فالمعاني العامة إذا اشترك في تصويرها شاعران أو شعراء لا يقال فيها: إن اللاحق أخذ عن السابق ، وهذه حقيقة أقر بها كبار النقاد كالقاضي عليّ ابن عبد العزيز الجرجانيّ ، ثم الإمام عبد القاهر الجرجانيّ كما في كتابي : «الوساطة» ، و«دلائل الإعجاز» وغيرهما.

*** نماذج من المعاني المبتكرة :**

في تراثنا الأدبيّ صور لا تحصر من المعاني المبتكرة التي لم تعرف لأحد قبل استئثار مبتكرها بها ، ومنها قول امرئ القيس في مدح فرسه بالسرعة ، وطراده بالتبكير .

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فهذا المعنى : « قيد الأوابد » لم يعرف لأحد قبل امرئ القيس وقد حاكاه فيه بعض الشعراء من بعده ، ولكنه سيظل منسوباً إلى امرئ القيس

في وعي التاريخ الأدبي حتى قيام الساعة .

ومن المعاني المبتكرة : قول أبي عُبادة البحتري:

سـلام وإن كان السـلام تحـية فوجهك دون الرد يكفي المُسَلِّما

ومعناه : ألقيت عـليك السلام تحية ونظري إلى وجهك يـكفيني ويقوم مقام الرد ؟!

وأبو تمام له معان أجـمع النقاد على أنها لم تُختـرع إلا على لسانه ، ومنها :

وإذا أراد الله نشـر فضـيلـة طويت أتاح لها لسـان حسـود

لولا اشتعال النار فيما جـاورت ما كان يعرف طيب عَرْف العود

ومما لطف له من المعاني قوله في مدح بني مالك :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبورٌ لكم مستشرفات المعالم

يقول لهم : إن موتاهم علموا الأرض وعَدَوْها بكرمهم فأنبتت بعد أن كانت لا تنبت ؟!

ومن اللطيف المخـترع قول حـسـان بن ثابت حين أراد أن يُسَرِّي عن النبيّ ﷺ لما اشتد حزنه على فراق ولده إبراهيم :

رأى أنه إن عاش ساواك في العلى فآثر أن تبقـى فـريـدًا بـلا نـدٍّ

فالمعنى لطيف كـما ترى ، وعلمـاء البديع يعدونه من شـواهد حسن التعـليل ، وهو أن يُدَّعى لأمر علة وسـبب غيـر سببـه الحقـيقيّ ، فـموت إبراهيم كان سببه وعلته استيفاء أجله ، ولكن حسانًا التمس له علة أخرى.

وصفـوة القول : إن المعاني ليـست كلها مشاعـاً، بل منها ما يخـترع ويبتكر ، وبهذا ندرك أن دعوى بوفون بمشاعية المعاني ليست مقبولة .

* الاختـيـار :

ومن العناصـر الأسلـوبيـة التي شـاع الحـديث عنهـا في الدراسـات

الأسلوبية الحديثة عنصر أو دعامة الاختيار ، وهذا أمر طبعيّ سواء نُصَّ عليه أو لم يُنص ؛ لأن الأديب شاعراً كان أو ناثراً يميل إلى التأنق في نتاجه ليخرجه في معرض حسن ، ومن شروط حسن النتاج الأدبيّ صحة عباراته أو صحة تراكيبه ، وصحة التركيب تقتضي صحة الألفاظ المستعملة فيه .

إذن فالاختيار والتأنق خطوات أساسية ينبغي أن تسبق النتاج وتصاحبه في آن واحد، تسبقه باعتبارها خطة تجنب العمل الأدبيّ خطورة التلقائية؛ لأنها كثيراً ما يكبو معها العمل،إلا من عصمه الله، وتصاحبه عند تسجيله، إذ لا فائدة في خطة توضع ولا يستفاد منها في عملية الخلق والابتكار .

هذه المقدمة لا فكاك منها ونحن نتصدى لسمة من سمات الأسلوب الجيد وهي الاختيار . ودائرة هذا الاختيار واسعة :

فقد يكون الاختيار بين الأشكال أو الأجناس الأدبية شعراً أو نثراً ، وإذا وقع الاختيار على الشعر -بعامة- فهناك خطوة أخرى للاختيار داخل دائرة الشعر نفسه من حيث :

أ - البحر الذي يناسب الفكرة المراد الإفصاح عنها .

ب - القافية التي ينبغي أن يسير عليها الشاعر ، وهي تتنوع بتنوع حروف الهجاء تقريبًا .

جـ - الموسيقى الداخلية « الخفية » التي تنشأ عن البنية الصوتية للبيت الواحد ، ثم تعم أبيات القصيدة كلها .

وإذا وقع الاختيار على النثر ففي أي أجناسه يصوغ فكرته :

في القصة الطويلة «الرواية» أم الأقصوصة؟ أم الخاطرة؟، وفي أولئك هناك صور وخطوات للاختيار لا تنتهي. فالعمل الأدبيّ مزج وخلق وابتكار بقدر المستطاع، وليس مجرد تزاوج بين لفظ ومعنى على أي وجه يكون .

*** مجالات الاختيار :**

وينبغي أن ندرك - دائمًا - أن اختيار الأديب يكون - دائماً - بين

صوابين لا بين صواب وخطأ ؛ لأن الصواب متفاوت فيما بينه ، فمع أن الصواب هو الصواب، فإن صواباً يليق بموضع دون أن يليق به صواب آخر. ولكل مقام مقال . فقد تكون اللفظة فصيحة جميلة ، ومع هذا فلا تصلح في كل مناسبة ، وفصاحة الكلمة وجمالها تتحقق بثلاثة شروط :

١ - الرواية: ويقصد بها ورود الكلمة عن أهل اللغة التي يصاغ فيها العمل الأدبيّ، فإذا لم تكن واردة عنهم عُدَّت ساقطة؛ لأنها لفظة منحولة.

٢ - الاستعمال : فورود الكلمة عن أهل اللغة وحده لا يكفي ، بل لا بد من ثبوت استعمالهم لها ، وإلا كانت كلمة وحشية غريبة لا عهد للبيان بها .

٣ - الطبع : وورود الكلمة عن أهل اللغة واستعمالهم لها في كلامهم ، هذان شرطان خارجان عن عمل الأديب نفسه ، أما ما يتصل بعمل الأديب فشيء آخر ،هو الطبع ، أي لا يكون متكلفًا في استعمالها ، مجافياً بها موضعها ، مستكرهاً لها في الموضع الذي وصفها فيه .

وهنا قد يبدو أن الأديب يختار صواباً على خطأ ، وهذا مخالف لما قلناه آنفًا ، ويزول هذا الإشكال إذا قلنا : إن الأديب ينبغي أن يجتنب - أساساً - هذا الانحراف ، اللهم إلا إذا كان أديبًا ناشئاً أو قليل الدربة فلا ضير - إذن -أن يقع اختياره على الصواب دون الخطأ ، وفي عدِّنا - هنا - عمله اختياراً نوع من التساهل ؛ لأن الخطأ يجب إهماله قطعاً ، فلا يتعلق به اختيار قط .

*** التراكيب :**

الاختيار في مجال الألفاظ ليس شاقاً مثل الاختيار في مجالات التراكيب ، فالتركيب يتكون من كلمات ، ومن التركيب تتكون الفقرات والأساليب ، والأديب محتاج إلى قدرات وخبرات واسعة وطويلة حتى يتسنى له وضع التراكيب وضعاً فنياً محكماً ، أو إبداعياً أحيانًا ، ولا بد من

تدقيق النظر وإعمال الفكر وصحة التجارب إذ يتصدى لتسجيل عمل أدبي ونقله من صور ذهنية أو شعورية إلى عمل مقروء أو مسموع في إطاره النهائي « الشكل والمضمون أو الصورة والمعنى » .

والاختيار في إطار اللغة العربية وطرائقها الفنية والأدبية في الإفصاح والبيان ، غير الاختيار في اللغات الأخرى ، وبخاصة تلك التي تختلف كثيراً عن اللغة العربية في طرق أدائها الفنية ، واللغة العربية تمتلك من عناصر الإبانة ومرونة الألفاظ والتراكيب والقواعد المعيارية ما لم تمتلكه لغة أخرى باعتراف كبار الباحثين والنقاد الذين جمعوا بين الثقافتين العربية والغربية ، ويكفي أن نحيل الدارس إلى كتاب « اللغة الشاعرة » لأستاذنا عباس العقاد ، فالكتاب مع صغر حجمه مفيد - بحق - في هذا المجال ، وكذلك لا بأس من الرجوع إلي كتاب « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري تحقيق الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، وكتاب «الخصائص» لابن جني ، وكتاب «فروق في اللغة» لأبي هلال العسكريّ ، فهذه المصنفات ترينا مقدرة اللغة العربية الفائقة على الإفصاح في أنماط متعددة ، ولا أظن أن الدارس في حاجة إلى الإشارة إلى كتابي عبد القاهر الجرجانيّ «الأسرار» و«الدلائل» وكتب علم المعاني البلاغية ، فهي معارض غنية في الكشف على مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية - لغة التنزيل - العملاقة . .

وبعد هذا العرض الموجز النظريّ يحسن أن نقدم نماذج من التطبيق .

* نماذج من غير العربية :

في الدراسات الأسلوبية المعاصرة تعزى كل الأسس أو جلها التي قامت عليها هذه الدراسات إلى كُتَّاب غربيين مثل سوسير، وبالي، وليو شبتسر، وبوفون، وسويفت، وستيفن ألمان، وتشومسكي، وميكيل ريفاتير وغيرهم .

لذلك كان من الواجب سوق بعض النماذج من أدبهم على كيفية الاختيار والموازنة بين الصيغ موضوع الاختيار عندهم ، والنماذج التي ننقلها هنا من مقال مترجم إلى اللغة العربية كتبه أحد علماء الأسلوب من الأروبيين ستيفن ألمان ، وقد شاع عندهم - الغربيين - أن للغة مستويين :

أحدهما نمطي : أي خاضع لقواعد اللغة عندهم نحواً وصرفًا .

والآخر : «انحرافي» : أي مائل عن نسق اللغة وهو ما يراد به اللغة الفنية عندنا .

ويسمون - كما ورد في مقال ألمان - الصور الانحرافية الخارجة عن الإطار اللغوي العام - (حيلاً تعبيرية) - : جمع حيلة ، وستيفن ألمان قدّم صوراً كلها تدور حول تقديم ما حقه التأخير عندهم ، وذكر الأسرار التي تدعو الأديب إلى هذا « الانحراف» أو الميل عن النظام اللغوي . (هو هنا النظام اللغوي للغة الفرنسية) .

وإليك النماذج :

١ - تأخير الفاعل إلى نهاية الجملة وتقديم ما عداه عليه لعدة مزايا :

أ - كلما كان الفعل يتقدم كانت تتغير الصورة التي أراها من النافذة.

ب - كلما تقدم الفعل كانت الصورة التي أراها من النافذة تتغير ، ويشير الكاتب إلى أن اللغتين الإنجليزية والفرنسية يتقدم فيهما الفعل بعد الفاعل وقبل المفعول به ، أي أن النسق اللغوي فيهما يأتي على هذا الترتيب : الفاعل + الفعل + المفعول به .

ويمثل لهذه القاعدة بقوله : الكلب يرى القطة [1] . فالكلب فاعل

---

(١) الكلب يرى القطة ، هذه جملة اسمية لا تقديم ولا تأخير فيها حسب نظام اللغة العربية ، فالكلب مبتدأ والجملة بعده خبر ، وفاعل يرى ليس الكلب - كما نعلم - بل هو ضمير مستكن وجوباً يعود على الكلب وهذا فرق جوهريّ بين نظام اللغة العربية واللغتين الإنجليزية والفرنسية .

جاء في صدر الجملة، وتلاه الفعل «يرى» ، ثم كان المفعول به في النهاية: القطة ، ثم قال مستطرداً :

«غير أن في هاتين اللغتين مواضع محددة يكون فيها الخروج على هذا الترتيب جائزاً أو واجباً ، والعكس الواجب لا يدخل في عملية الاختيار ؛ لأنه واجب ، وإنما مجال الاختيار في الخروج الجائز» [1] .

ومحط المقارنة بين الجملتين الآنفتي الذكر ورود الفعل قبل الفاعل في: تتغير الصورة التي أراها». وهي مخالفة للنسق اللغوي حسبما تقدم فهي عبارة انحرافية وحيلة تعبيرية اقتضاها مقتض.

أما الجملة الثانية: «كانت الصورة التي أراها من النافذة تتغير» فهي عبارة نمطية حيث جاءت على النسق اللغويّ وهو تقديم الفاعل على الفعل.

ومع تقارب المعنى في الجملتين يذكر ألمان أن الجملة الأولى (الانحرافية) تشي بمزايا لا وجود لها في الثانية (النمطية) ومنها :

أ - إنها من حيث الإيقاع الصوتي ألذّ وقعًا في الأذن .

ب - إن الفعل والفاعل جاءا فيها متجاورين « تتغير الصورة » بينما هما مفصولان بجملة الصلة في العبارة الثانية « كانت الصورة التي أراها من النافذة تتغير » ؟! إضافة إلى ما فيها من تقابل بين اسم وفعل ، وفعل واسم : الفعل يتقدم - تتغير الصورة . وهذا التقابل لا وجود له في الجملة النمطية الثانية ؟!

ج - ومع أن المعنى واحد فإن العبارة الأولى « الانحرافية » قد أدت المعنى في قوة وشدة تأثير؛ لما فيها من توازٍ بين الحدثين تقدم الفعل وتغير المنظر ، يؤكده التجاور الحركيّ بين الفعلين : يتقدم ، تتغير .

هذه الاعتبارات أو المزايا جعلت الكاتب «بروست» يميل إلى الجملة الأولى الانحرافية، ويدير ظهره للجملة الثانية النمطية، أي أن الكاتب: بروست قارن بين صوابين ، ثم اختار ما هو أقل صواباً من أجل المزايا التي أشار إليها ستيفن ألمان وقد نقلناها في شيء من التصرف توخياً للإيضاح .

---

(١) انظر : « اتجاهات البحث الأسلوبي» ص(٨٨) مرجع سبق ذكره .

٢ - ويسوق ألمان عبارة أخرى للكاتب « بروست » تأخر فيها الفاعل إلي النهاية القصوى وهي :

واندست في السياج-وإن اختلفت عنه اختلاف صبية تلبس ثوب العيد بين أناس في مباذلهم-مستعدة لشهر مريم الذي أصبحت وكأنها جزء منه-متألقة مبتسمة في زينتها الوردية الطازجة: الشجرة الكاثوليكية البهيجة».

فالفعل: «اندست» الواقع في صدر الجملة فاعله هو «الشجرة» الواقعة في آخر الفقرة، وقد تأخر الفاعل عن الفعل كثيراً كما ترى، وفصل بينه وبين فعله بجمل اعتراضية متعددة، ويقول ألمان: إن السبب في تأخير الفاعل -هنا- وتقديم ما عداه عليه، وهو أحق بالتقديم من غيره: السبب في هذا هو تشويق السامع أو القارئ لمعرفة الفاعل؛ لأنه ليس مجرد فاعل بل هو فاعل من نوع خاص، وكان الأصل أن يقال: اندست الشجرة.. الخ .

٣ - وقد يفيد تقديم الفعل على الفاعل - عندهم - ما يسمى بالدرامية وحدة الانفعال. ويسوق ألمان شاهداً على هذا المعنى من قصة لكاتب يسمى «ميشيل بوتور»، قام برحلة في قطار من باريس إلى روما، وأخذ يسجل وقائع تلك الرحلة في قصة فنية ، يقول ألمان : وكان يتخلل سياق القصة مقطع متكرر يوحي بالتأثرية والدرامية وهو « مرّت محطة . . مرّت محطة » فتقديم الفعل على الفاعل هنا ، وكان الأصل أن يقول : محطة مرت » الذي دعا لهذا التقديم هو ما ذكرنا من التأثرية والدرامية .

وهكذا ترى تقديم الفعل على الفاعل - عندهم - إنما هي واحد من « الحيل التعبيرية » أو «الصور الانحرافية» للاستعمال اللغوي عندهم .

ولا أريد أن نطيل بذكر نماذج أخرى ، فالأمثلة السابقة كافية في تعرف الدارس على منحى من مناحي البلاغة العربية في مجال «الاختيار» بين صوابين الذي هو سمة من سمات الأسلوب الحديث أو الدراسة الحديثة للأسلوب .

الاختيار في اللغة العربية

ومجال الاختيار في اللغة العربية بحر لا ساحل له ، ومن نماذجه الغنية الأبواب الثمانية التي تضمنها علم المعاني ، ومنها :

الاختيار بين الإسناد الحقيقي والإسناد العقلي ، وبين الذكر والحذف ، وبين التقديم والتأخير ، وبين الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وبين التأكيد وترك التأكيد ، وبين التقييد والإطلاق ، وبين التعريف والتنكير وبين الإيجاز والإطناب والمساواة .

ثم في علم البيان بين صور التشبيه المتعددة ، وبين الحقيقي من المعاني والمعاني المجازية ، وبين التصريح والكناية والتعريض ، مع ما لعلم البديع من صور هي طوع يد الأديب يضفي بها على الصياغة ، وجوهًا عدة من تأدية المعاني وخدمة الألفاظ .

*** أمثلة من التقديم :**

ونورد فيما يأتي صوراً من دلالات التقديم في البيان العربيّ مثلما قدمنا صوراً منها عن اللغات الأروبية وبلاغتها وآدابها :

*** أنواع التقديم في بلاغة العربية :**

للتقديم في بلاغة العربية ثلاثة أنواع :

الأول : تقديم ما رتبته التأخير كتقديم الخبر «المسند» على «المبتدأ» المسند إليه ، وتقديم بعض المعمولات على بعض ، وهذا النوع جائز لا واجب .

الثاني : تقديم واجب ، وهو تقديم الخبر على المبتدأ إذا كان المبتدأ نكرة لا مسوغ لها والخبر شبه جملة (ظرف أو جار ومجرور) مثل : عندي رأي ، و« في الميدان بطل » وهذا التقديم تقتضيه الصناعة النحوية ، ولا

شأن للبلاغة به .

الثالث : الإتيان بالشيء مقدماً ، دون أن تكون له رتبة معينة في النظم، وذلك كتقديم المال أو الأموال على الولد أو الأولاد في كل موضع اجتمع فيه المال والولد في القرآن الكريم ، ومن المفيد أن نسمي هذا النوع « بالتقديم غير الاصطلاحي، والنوع الأول : «التقديم الاصطلاحي»، أما الثالث فنسميه : «التقديم النحوي» ، وحديثنا هنا مقصور على التقديم الاصطلاحيّ توخياً للإيجاز :

يؤدي التقديم في البلاغة العربية معاني دقيقة ، قد ترجع إلى أصل عام هو الاهتمام بالمقدم ، وتحت الأصل العام صور مختلفة ، فخذ إليك قول المتنبي مثلاً :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

هذا الكلام لا يدرك حقيقة معناه إلا مَن وقف على دراسة أسرار التراكيب وطرق صياغتها ، أما من ليس له دراسة فقد يختلط عليه الأمر . إذ من الممكن جداً أن يفهم هذا الكلام على جهة ، ونقدم للدارس طريقتين في فهم قول الشاعر :

أولاهما : قد يُفهم من هذا الكلام عموم النفي المستفاد من « ما » في الشطر الأول من البيت، ومن «لا» في صدر الشطر الثاني فيكون المعنى :

أن الشاعر سليم الجسم لا يشكو علة ولا سقماً ، وأن قلبه مطمئن خال من حرقة الشوق .

والآخرة : أن الشاعر يلوِّح بأنه سقيم الجسم محترق القلب .

والمعنى الأول خطأ صريح ، ومنشأ الخطأ أن مَنْ يفهم هذا الفهم نظر إلى النفي في الجملتين فسلطه على الجملة كلها (المسند إليه «أنا» ، والمسند «أسقمت»...)، وهكذا النفي في الشطر الثاني .

والصحيح هو المعنى الثاني فالشاعر سقيم الجسم محترق القلب ، أما النفي في « ما » و « لا » فمقصور على المسند إليه « أنا » والمعنى أنه لم يُسقم جسمه وإنما الذي أسقم جسمه شخص آخر « المحبوب » وأنه لم يشعل هو النار في قلبه وإنما الذي أشعلها هو « المحبوب » فالشاعر لم يرد أن ينفي أنه سقيم عليل القلب ، وإنما أراد أن ينفي أن يكون هو الذي فعل، فهو ينفي الفعل عن نفسه ويثبته لغيره على النحو الذي مر .

والسبب في هذا هو تقديم المسند إليه «أنا» على خبره الفعليّ «أسقمت- أضرمت»، واليًا - أي المسند إليه- أداة النفي (ما أنا-ولا أنا) .

وهكذا كل مسند إليه إذا قُدِّمَ على خبره الجملة الفعلية وقد تقدم على المسند إليه نفي ، فإنه يفيد قصر النفي على المسند إليه دون المسند فإنه ثابت غير منفي . .

فمعنى البيت أن الشاعر لا ينفي سقم جسمه ولا إضرام النار في قلبه، فهما حقيقتان ثابتتان ، وإنما ينفي أن يكون هو الذي فعلهما .

أما إذا أريد نفي السقم والإضرام فالطريقة فيه أن يقال: «ما أسقمت جسمي ولا أضرمت النار في قلبي » . ويكون الفعل في هذه الحالة مقدماً على الفاعل ؛ لأن الفاعل هو التاء في الفعلين والتقديم في هذه الحالة وما أشبهها واجب لا جائز عند إرادة المعنى الذي أرادة الشاعر .

ومن صور التقديم الجائز قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون : ﴿قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ [1] ، وموضع الشاهد - هنا - هو تقديم « من آل فرعون » على « يكتم إيمانه »، وسر هذا التقديم أن « من آل فرعون » لو أخرت على « يكتم إيمانه » لجاز أن يُفهم من هذا التقديم أن الرجل يكتم إيمانه من آل فرعون خاصة ، وهذا المعنى غير مراد، بل المراد أن لهذا الرجل صفتين :

إحداهما : أنه من آل فرعون ليس غريباً عنهم .

والأخرى : أنه كاتم لإيمانه مطلقًا عن آل فرعون - قومه وعن غيرهم.

ولما قُدِّم في النظم القرآنيّ الحكيم «من آل فرعون» على «يكتم إيمانه» ثبت الوصفان للرجل بدون توهم فهم غير المقصود وهما -أي الوصفان-:

* كونه من آل فرعون .

* وكونه كاتماً لإيمانه كتماً مطلقاً .

فتأمل هذه الدقة في التعبير ، والإحكام في وضوح البيان .

ومنه قوله تعالى في لطف العتاب لرسوله ﷺ حين أذن للمنافقين بالانسحاب من ملاقاة العدو في غزوة الأحزاب حين قالوا له - احتيالاً ومراوغة - إن بيوتنا عورة ، فنزل قوله تعالى : ﴿عفا الله عنك لمَ أذنت لهم﴾ .

فقدم العفو على سبب المؤاخذة، وكان يمكن أن يقال: لم أذنت لهم؟ عفا الله عنك ، وسر تقديم ذكر العفو قبل ذكر موجب المؤاخذة هو اللطف في العتاب مع صاحب الدعوة وتقديراً لرقة مشاعره ، إذ لو بدئ بموجب العتاب لتفطَّر قلبه خشية من ربه قبل أن يسمع التكرم عليه بالعفو هذه مُثُلٌ المقصود منها أن نشير إلى عبقرية اللغة العربية وما فيها من خصائص تعبيرية تكسو الأساليب روعة وجمالاً ودقةً وإحكاماً .

فهي تملك من الخصائص التعبيرية ما لم تمتلكه أية لغة من لغات العالم، ولذلك جعلها الله لغة التنزيل المعجز ، كما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم عن لسان اللغة العربية وهي تتحدث عن نفسها :

وسعت كتاب الله حكماً وحكمة وما ضقت عن آي به وعظات

وهذا يجعل مجال الانتقاء والاختيار أمام أرباب القول والبيان أوسع من حاجتهم إلى وسائل الإفصاح والبيان إنها كالبحر الزاخر لا ترد وارداً ، ولا تنضب على كثرة الوراد والطالبين .

*** الاختيار قديماً وحديثاً :**

ولا تحسبنّ أيها الدارس أن سمة الاختيار في الدراسات الأسلوبية الحديثة هي وليدة هذه الدراسات، بل هي قديمة، قدم البيان نفسه ، عرفتها أمم الحضارة منذ فجر التاريخ ، وعرفتها أمتنا العربية في جاهليتها وفي إسلامها ، عرفها أرباب القول والبيان منهم منشئين ونقاداً ومؤرخي الأدب

ولكي يتضح الأمر نشير إلى الظواهر الآتية :

١- إن بعض الشعراء الجاهليين كزهير بن أبي سلمى كانوا شديدي العناية بتهذيب قصائدهم والنظر فيها من حين إلى حين آخر يحذفون ويضيفون وينقحون، وقد يحبس الشاعر منهم نفسه على صُنع قصيدة حولاً كاملاً قبل أن يعرضها على الناس . حتى سميت قصائدهم بالحوليات ، وسموا هم بأنهم « عبيد الشعر » ؟.

ولهذا قال الأصمعيّ في زهير والحطيئة وأمثالهما : « زهير والحطيئة وأمثالهما عبيد الشعر » .

ومن هؤلاء عديّ بن الرقاع ، وقد اعترف بذلك شعراً فقال:

وقصيدة قد بت أجمع شملها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقّف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافُهُ منآدها

ومن الظواهر بالنقدية اللصيقة بالاختيار ما عرف من الشعر الجاهلي بـ « المعلقات » وهي سبع باتفاق ، وعشر في بعض الآراء ، وتمثل هذه الظاهرة الأدب المجاز في عصرنا شعراً أو نثراً . . ومعنى المعلقات أي القصائد التي تشبه في جودتها وحسنها قلائد الذهب التي تعلقها الحسناوات في نحورهن تزيناً وتحلية والمشهور في تسميتها «معلقات» أن النقاد العرب في الجاهلية أجمعوا على أنها أحسن ما أنتجه قرائح الشعراء في ذلك العصر فعلقوها في جدار الكعبة احتفالاً بها ، وتكريماً لقائليها ، وقد ضُعِّف هذا الرأي، وقُدِّم عليه الرأي الأول.

والذي يعنينا من هذه الظاهرة أن الاختيار كان سمة مشتركة عند الشعراء وعند النقاد في آن واحد.

وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي وجدنا ظاهرتين أخريين تؤكدان ما نحن بصدده من أن الاختيار في مجال صنع العمل الأدبي (الأسلوب) ونقده منهج قديم وليس ثمرة للدراسات الأسلوبية الحديثة .

إحدى الظاهرتين الإسلاميتين ما نراه في منهج أبي زيد القرشيّ في كتابه «جمهرة أشعار العرب» فقد نهج فيه منهجاً قائماً على الانتقاء والاختيار في الجمع والتصنيف معاً .

فهو لم يجمع إلا ما راق له وحلا ، واستجمع خصائص النتاج

الحسن ثم حين قام بتوزيع القصائد التي جمعها اختار لكل مجموعة منها اسماً هو في الأساس حكم نقدي أصدره الناقد - أبو زيد القرشيّ - على المجموعة ، مثل المُجمهرات والمنقحات .

وقد تكررت هذه الظاهرة فيما بعد في كتب طبقات الشعراء ، مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، والشعر والشعراء لابن قتيبة .

وفي حماسة أبي تمام ، ومختارات ابن الشجري ، وفي المفضليات للضبيّ أن كل أصحاب هذه المصنفات المشار إليها - وغيرها - كان الانتقاء والاختيار يحكم كل أعمالهم ، وكتب الأمالي تدخل معنا في هذا المجال، مثل : أمالي الزجاج ، وأمالي القالي ، وأمالي المرتضي .

٢- صحيفة بشر :

والظاهرة الثانية تتمثل في صحيفة بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ هـ)، وهي تأخذ اتجاهاً آخر غير اتجاه جُمّاع رائق الشعر وجيده التي أشرنا إليها آنفًا .

فهؤلاء جمعوا نتاجاً أدبياً كان أصحابه قد قالوه وفرغوا منه ، أما بشر فيجعل من نفسه مشرعاً وناصحاً لمن يريد أن يقول أو يكتب كلاماً في فن ما من فنون القول .

ونجتزئ من صحيفة بشر المقاطع الآتية [1] :

« . . وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك . . » .

« . . فكن في ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك طاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً» .

«ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما . . » .

---

(١) انظر صحيفة بشر كاملة في البيان والتبيين للجاحظ (جـ١ ص١٣٦).

« والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ».

« فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف على الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام » .

وقفة مع هذا الكلام :

قلنا : إن بشراً جعل من نفسه مشرعاً وناصحاً لأرباب القول ومحترفي البيان ، وقد أصاب في نصحه ورسم الطريق التي أراد ، ومن يطلع على نصوص هذه الصحيفة كاملة يجدها على قصرها قد جمعت فأوعت ، فقد قسم فيها بشر المنازل تقسيماً وافياً .

فمن أنس من نفسه سخاء القول مع حسنه فليمض فيما هو آخذ فيه .

وإذا استوعر المسلك ، وكلَّت القريحة فيجب التوقف ريثما يعود للنفس سخاؤها ، وللقريحة نشاطها .

وإذا لم يكن المرء بواحدة من هاتين المنزلتين فعليه أن يصرف نفسه عن احتراف الأدب والبيان ، ويبحث عن شيء يحسنه حتى لا يتعرض للوم الناس إذا هو تعاطى ما ليس له بأهل .

هذا بالإضافة إلى ما أشار إليه بشر من تخير الألفاظ والتراكيب ومراعاة حال السامع ، فإن لكل مقام مقالاً يناسبه .

إن عملية الخلق أو الابتكار الأدبيّ عملية شاقة تتطلب أولاً وقبل كل شيء وفرة النشاط النفسي وخلو الذهن من المشاغل مع امتلاك الأدوات المعينة على الإفصاح والبيان واختيار الألفاظ والمعاني والتراكيب ، وهذا قد فطن إليه الأدباء والنقاد منذ عهد بعيد ، فالمحدثون لم يصدروا في هذا عن

فراغ ، ومن يدعي هذه الدعوى فقد أبعد النجعة ، وأتى بما لا يقره عليه الناس .

ومن المحفوظ عن ذي النورين عثمان بن عفان أنه صعد يومًا ليخطب الناس فارتجّ عليه ثم قال: «إن الشيخين : يعني أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، أما أنا فأقول لكم : إنكم إلى إمام فعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال » .

والإعداد الذي يشير إليه ذو النورين - هنا - عمدته التخير بين ما يقال وما لا يقال .

وفي مجال الأدب يقول القاضي الفاضل :

لا تعرضنَّ على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذي بها

ويقول البحتريّ واصفاً شعره ، ألفاظه ومعانيه :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظامٌ فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع البديع
مشرق في جوانب السمع ما يُخلِقه عودُ ، على المستعيد
حجج تخرس الألد بألفاظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي هجَّنتْ شعر جَرْول ولبيد
حُزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد

فهل كان من البحتريّ إلا وليد انتقاء وانتخاب واختيار ، كما قال هو نفسه : « حُزن مستعمل الكلام اختياراً . . » يصف ألفاظه بعدم الابتذال ، ومعانيه بالبهاء والسهولة .

• • •